عرب الجاهلية في مباذلهم (*)

موضوع محاضرتي أيها السادة حوادث عربية جاهلية نصرانية فارسية جرت وقائعها بين البلادين بلاد العرب وبلاد فارس قبيل الاسلام . وهذا الموضوع يصلح أن يكون نموذجاً من النماذج التي تدل على ثقافة عرب الجاهلية المتحضرين عامة ونصاراهم خاصة وعلى حياتهم الاجتماعية وهم في سلمهم ومباذلهم : أي أثواب بِذْلتهم في بيوتهم . لا في دروعهم ومعارك حروبهم

فأنتم ترون أن الموضوع لا يعدو ان يكون نزهةً قصيرة بين رياض التاريخ وحدائق الشعر والادب . نتنسَّم منها أخباراً عربية فيها طرافة وفيها روعة تمثّل لنا طباع العرب . وشمائل العرب . والعُجَر والبُجَر من نفسية العرب : فهي ذات ألوان مختلفة . وأفانين منوّعة يجد فيها المؤرخ المنقّب ، والكاتب المتأدّب . والواعظ المحذّر . والحكيم المتدبّر . وذو اللهو المُستهتَر في غلواء غرامه . والفاتك السادر (١) في كيده ودسائس انتقامه — كل هؤلاء يجدون في أخبار هذه المحاضرة حاجتهم . ويقعون منها على ضالّتهم .

* * *

تعلمون أيها الأفاضل أن جزيرة العرب — على وقوعها في طريق الجبابرة الفاتحين — بقيت مصونة . منيعة الجانب . لم يذِلّ أهلها فاتح . ولم يستبد فيهم من غير جنسهم قاهر .

(*) محاضرة الأستاذ عبد القادر المغربي ألقيت في ردهة محاضرات المجمع العلمي العربي في كانون الأول سنة ١٩٢٣ .

(١) السادر الذي لا يهتم ولا يبالي ما صنع وفلان سادر في الغي تائه .

وملوك العرب في زمن جاهليتهم كانوا يؤلفون مجموعة دولية ذات ثلاث شعب : دولة الحيريين في جنوب الجزيرة . ودولة المناذرة في شمالها الشرقي . ودولة الغساسنة في شمالها الغربي .

وكانت الدولة الأولى الحميرية ذات استقلال تام اللهم الا نحو سبعين سنة خضعت فيها لحكم الحبش ثم تخلصت منهم .

أما الدولتان الأخريان : دولة المناذرة ودولة الغساسنة فاستقلالهما كان مشوباً بشائبة من نفوذ دولتي فارس والروم . أو بشائبة من انتدابهما كما تقول اليوم .

* * *

(الحيرة)

وكانت عاصمة المناذرة مدينة الحيرة الشهيرة . قال القزويني هي واقعة على ساحل البحر بقرب الكوفة . وفسّر القرماني وقوعها على ساحل البحر بقوله : (إن بحر فارس كان ممتداً الى الكوفة أما الآن — أي في أواسط القرن الرابع للهجرة — فليس لها أثر ولا للبحر ومكان المدينة دجلة وهي آثار طامسة اهـ قول القرماني) .

وقد أخطأ من جهتين :

(١) قوله : (إن مكانها — أي مكان الحيرة — دجلة) اذا كان مراده أنها واقعة على نهر دجلة كان خطأ لأن الحيرة واقعة على نهر الفرات إذ هي بقرب الكوفة والكوفة على الفرات لا على دجلة .

(٢) قوله : (ان بحر فارس كان يمتد الى الكوفة) غريب ، ولا نعلم في أي زمن من أزمنة التاريخ كان ذلك . ومثله ما في (نهاية الأرب) للنويري (جزء ١ ص ٢٦٧) فقد قال : (ان مراكب الهند والصين تصل في البحر الفارسي الى الحيرة) .

وكلّ ذلك وهم لأن الكوفة تبعد عن بحر فارس أكثر من مائتي

كيلومتر ويشهد لذلك ياقوت في (معجم البلدان) فقد قال : (الحيرة مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له (النجف) زعموا أن بحر فارس كان يتصل به اهـ . وكلمة (زعموا) تدل في اصطلاح الكتّاب على توهين الخبر بل تكذيب راويه أحياناً .

ويمكن تأويل ذلك بأن أول من قال ان (الحيرة) واقعة على ساحل البحر أراد بالبحر نهر الفرات . ولا يخفى ان العرب يسمون كلّ ماء كثير بحراً والى اليوم يسمي المصريون نهر النيل بحر النيل .

وقد جاء لفظ البحر في شعر عرب الجاهليـــة مراداً به النهر قال عديّ بن زيد العبادي :

(سرّه ماله وكثرة ما يمـــلك والبحر معرضاً والسدير)

قال ابن منظور صاحب اللسان : أراد بالبحر نهر الفرات .

وسميت مدينة الحيرة (الحيرة) من الحَوَر وهو البياض أو من التحير . أو هي كلمة سريانية معناها الحصن حوله خندق : فان الملك الذي أنشأها بناها أولاً حصناً اتخذه لنفسه وحاشيته ثم بنى الناس حوله الدور وهكذا نشأت مدينة الحيرة ، وعظم شأنها واتسع عمرانها .

ولما كانت ذاتَ ينابيع عذبة وكانت واقعةً على طرف بادية العرب حسن هواؤها . وطاب للناس سكناها حتى قالوا (يومٌ وليلة في الحيرة خيرٌ من دواء سنة) .

والحيرة جاهلية البناء ولكنها بقيت الى بعد الفتح الاسلامي واستمرت ذاتَ زروع وفواكه وصناعة جميلة . وفيها كل ما يحتاج اليه من مرافق المعيشة .

ومن طريف أخبارها انّ بعض ولاتها في زمن بني أمية عابها في ملأ من أهلها فردّ عليه أديب ظريف منهم قائلاً : أتعيبُ بلدةً بها يضرب المثل ؟ قال : بماذا ؟ قال :

« بصحة هوائها . وطيب مائها . ونزهة ظاهرها . تصلح للخفّ والظليف . سهلٌ وجبَل . باديةٌ وبستان . برٌ وبحر . محلّ الملوك

ومزارهم . ومسكنهم ومثواهم . وقد قدمتها أصلحك الله مُخفّاً . فرجعت مُثقلا . وورّدتها مُقِلاً . فأصدرتك مُكثِراً » .

فقال له الأمير : كيف نعرف صدق ما تقول ؟ قال : بأن تزورني ثم اطلب ما شئتَ من لذائذ العيش فأُحضرَه لك من الحيرة نفسها . ولا أتعدّى بك الى غيرها . قال : فاصنع لنا صنيعاً (أي وليمة) واخرجْ من قولك .

فصنع لهم مأدبةً وأطعمهم من خُبزها وسمكها . وما صيد من وحشها : من ظباء وأرانبَ ونعامٍ وحُبارى . وسقاهم ماءها في قِلالها . ونبيذَها في آنيتها . وأجلسهم على طنافسها . ولم يستخدم لهم حراً ولا عبداً إلا من مولّديها ومولّداتها . من خدم ووصائف : كأنهم اللؤلؤ . لابسينَ من ثيابها ومنسوجاتها . لغتهم العربية لغة أهلها . ثم غنّاهم (حنين) الحيري مغنّيها . بشعر عدي بن زيد شاعرها . وحيّاهم برياحينها . ونقّاهم على الشراب بنقْلها وفواكهها .

ثم قال للأمير : هل رأيتني استعنتُ على شيءٍ مما أكلتَ وشربتَ وافترشتَ وشممتَ وسمعتَ ورأيتَ بغير ما في الحيرة ؟ قال لا . ولعمري ! إنك أحسنتَ صفة بلدك ونصرته . فبارك الله لكم في بلدكم .

حقاً إن هذا العربيّ اللبق أعطانا درساً وطنياً اقتصادياً نحن في أشد الحاجة اليه : مذ نبهنا الى أن فخار البلاد وعزّها واستقلالها إنما هو في استغنائها بحاصلاتها ونواتج أرضها عن نواتج غيرها من البلاد الأجنبية .

ثم لما نشأت مدينة (الكوفة) في صدر الاسلام وهي واقعة بجانب الحيرة على ثلاثة أميال منها أخذ عمران الحيرة يضمحل رويداً رويداً وينتقل أهلها الى الكوفة شيئاً فشيئاً . فلم تأت أواسط القرن الرابع للهجرة حتى أصبحت الحيرة أثراً بعد عين . وهذا كما وقع لقرطجنة الفينيقية في المغرب مع القيروان الاسلامية . ثم القيروان مع تونس الاسلامية . و (القطائع)

الطولونية في مصر مع القاهرة المعزّية والري الفارسية مع طهران الفارسية فان الأخيرات أكلن أخواتهن . وتغذين بأنقاضهن .

* * *

وحوادث محاضرتنا هذه وقعت في (الحيرة) مذ كانت عاصمةً المناذرة في عهد الجاهلية . وقد كان سكانها يومئذٍ مؤلفين من عرب وثنيين ، وعرب نصارى ، وفرسٍ مجوس . سكنها العرب الوثنيون قبيل ظهور الاسلام لوقوعها في طرف جزيرتهم ، ولأن ملوكها عربٌ من لخم وتنوخ . وسكنها الفرس المجوس لأنها قريبةٌ من بلاد الفرس ومن عاصمتهم (المدائن) وهي تابعة في السياسة الخارجية لحكومتهم . وسكنها العرب النصارى على مذهب النساطرة لأنها واقعة في أحضان بلاد الآشوريين والكلدانيين الأقدمين .

* * *

فمن زار الحيرة في ذلك العهد وتجول في ساحاتها وأرباضها رأى هنا وفوداً من العرب عقلوا أباعرهم ، ولاثوا عمائمهم . وتنكبوا قسيّهم . ومشوا الخيلاء بمطارف الخزّ وبرود اليمن . وهم سُمر صُلع مسترسلو اللحى ثمّ الانوف من الطراز الأول .

ونرى هناك نساءً من النصارى يرفلن في الدمقس وفي الحرير . يغدون الى الكنيسة ليشهدوا قداساً يقوم به جاثليقها (صبريشوع) . وبجانبهن على برازيق الطريق أسراب من أولادهن يهرولون الى الكتاتيب يحملون الدفاتر والألواح . وفي أعناقهم وأعناق أمهاتهم صلبان الفضة والذهب . وفي أرجلهم النعال من جلد الارندج (وهو الجلد الأسود) . ونسمع حساً واذا أعرابي من أعراب البادية يرنو الى أولاد الفرس والسريان كالمأخوذ بجمالهم ويقول طوبى لأولاد الأعاجم : ما كأنهم الا نقبوا جدران الجنة وخرجوا .

ثم لا نلبث أن نرى خيل البريد قادمةً من (المدائن) عاصمة فارس الى الحيرة تنهب الأرض نهباً . تحمل الى ملكها النعمان بن المنذر رسائل الملك كسرى : يأمره فيها وينهاه .

ومع البريد دهاقين وأساورة من عظماء فارس : حُمْر الوجوه صهب الشوارب محلوقو اللحى على رؤوسهم القلانس البُطح أو الضاربة في الهواء صُمُداً . وقد أفرغوا على أبدانهم أقبية الحرير الملونة بالأرجوان . والمخوَّصة بالذهب . وفي أوساطهم مناطقُ الفضة . تتدلى منها السيوف والخناجر المرصَّعة .

ثم لم تلبث أن رأينا أحد هؤلاء الدهاقنة يحاور رجلاً في أمر بيع وشراء . فنسأل واحداً من عرب الحيرة عن الخبر فيقول لنا : إن الدهقان أعطى هذا الرجل السيفسير (تَمِيّاً) ليبتاع له بها (قَصافص) لفرسه . وكأن (القَصافص) لم تعجب الدهقان فردّها الى (السيفسير) واسترد منه (تَمِيّه) . فقلنا للحيري ما تقول ؟ فاننا لم نفهم كلامك فسّره لنا ، قال : أما (السيفسير) فهي كلمة فارسية معناها السمسار ، وكذا القَصافص جمع قِصفصة كلة فارسية معربة من (إسفست) ومعناها الفصّة وتسمى بمصر البرسيم . والتَّمِي جمع تَمِيّة وهي عملةٌ رومية يتعامل بها أهل بلدنا . فامتعضنا وقلنا له ويحك تتكلم بالكلمات الفارسية وأنت عربي ؟ قال : وما عليّ في ذلك ، وهذا النابغة شاعر مليكنا النعمان يقول واصفاً ناقته :

(وقارفت وهي لم تجرب وباع لها من القَصافص بالتَّمِيّ سيفسير)

أما ملوك الحيرة فهم المناذرة المشهورون سمّوا بذلك لأنه تولى منهم خمسة باسم (المنذر) كما تولى ثلاثة باسم (النعمان) وأصلهم من عرب قحطان اليمانيين ، وقبيلتهم لخم ، ومؤسس دولتهم (جذيمة الأبرش) الذي عاش في أواسط القرن الثالث المسيح ، وبعد وفاته تولى الملك ابن اخته (عمرو ابن عدي) وخلفه أعقابه فكانوا نحو اثنين وعشرين ملكاً واستمر ملكهم نحو (٣٥٠) سنة .

وكان الملوك المناذرة يسوسون الحيرة وما يليها من بلاد العرب باسم الأكاسرة . وكان في الحيرة أسرتان عربيتان شريفتان على دين النصرانية : (آل زيد) و (آل مرينا) وهما من القبائل المسماة بالعِباد . وكان الملك المنذر اثنا عشر ولداً يسمون الأشاهب لجمالهم : منهم النعمان الثالث الذي

تربى في (آل زيد) ونشأ مع أولادهم . كما ان أخاه (الأسود) تربى في (آل مرينا) .

وكان في الحيرة مرزُبان من مرازبة الفرس صحبه (زيد) فتعلم منه اللغة الفارسية وتخرج على يديه في الأعمال الادارية حتى تولى ادارة أعمال البريد العربي في عاصمة كسرى فكان أشبه بوزير المستعمرات العربية . وكان أهم أعماله التوسط بين كسرى وملوك العرب في تلقي الرسائل وتسوية المشاكل . وكان يستلم الهدايا التي يرسلها ملوك العرب الى بلاط كسرى في رأس كل سنة . وأكثر ما تكون تلك الهدايا مُهران أشقران . وكمأة رطبة في حينها . وأقِط وأدَم وسائر تجارات العرب .

وكان لزيد العبادي المذكور ولد اسمه (عَدِيّ) نشأ مع أولاد صديقه (المرزبان) فحذق العربية والخط والشعر كما تعلم الفارسية وآدابها والرمي بالنشاب ولعب الكرة والصولجان على ظهور الخيل كما يلعب أساورة الفرس . وتخرج في كل أدوات الرياسة : فكان عربياً في لغته . نصرانياً في ديانته . فارسياً في أدبه وعلمه وكثير من أطواره .

ولما أرسل (المرزبان) أولاده الى بَلاط كسرى كتب اليه يقول : إن عندي غلاماً من العرب (يعني عدياً) ربيته مع أولادي وهو أفصح الناس وأكتبهم بالعربية والفارسية . والمَلِك محتاج الى مثله . فان رأى أن يضمه الى أولادي الذين أرسلتهم الى خدمته .

فطلبه كسرى فدخل عليه ، وكان (عديّ) جميل الوجه والفُرْس تتبرك بالوجه الجميل . ولما كلمه وجده من أظرف الناس ، وأحضرهم جواباً . فمال اليه وأمره بملازمة البلاط مع أولاد المرزبان وأن يتولى النظر في شؤون العرب ومراجعة ملوكهم . فكان (عديّ) أول من كتب باللغة العربية في ديوان كسرى . وجعلت الوزارة المختصة بالشؤون العربية من يومئذ تحرر دفاترها ورسائلها بلغة العرب بعد أن كانت تفعل ذلك بلغة الفرس .

فارتفع قدر (عدي) في عاصمة العرب أعني (الحيرة) وهابه ملوكها

وسكانها . وكان اذا زار الحيرة ودخل على (المنذر) قام جميع من في المجلس حتى يجلس هو . وكان يقضي بعض أشهر السنة في بلاط كسرى وبعضها في الحيرة وأحياناً يتنقل بين بلاد العرب ورساتيق العجم حيث يغتنم فُرَص اللذات . وانتهاب المسرات .

قال الجاحظ : كان (عديٌّ) بن زيد نصرانياً ديّاناً وترجماناً وصاحبَ كتب وكان من دُهاة أهل ذلك الدهر اهـ .

* * *

(عَدِيٌّ في دمشق)

قلنا ان عدياً كان عربياً في جسمه ، فارسياً في عقله . ثم أصبح من جديد يونانياً في احساساته وعواطف قلبه . وكان السبب في هذا التطور الأخير أن كسرى أرسله سفيراً الى قيصر ملك الروم في مهمةٍ . فسُرَّ به قيصر ولا سيما مذ علم انه نصراني وأحب أن يستخلصه ويتخذ عنده يداً ينتفع بها في أغراضه السياسية . فأمر أن يُحملَ على خيل البريد فيطوف مملكة الروم ويشاهد عظمتها وعمرانها ، فطوّف فيها عديٌّ حتى أدّته خاتمة المطاف الى دمشق الشام : فسباه حُسنها وجمالُ موقعها ، وأزهارُ ربيعها ، وآداب أهلها ، وظرف نسائها ، وكان أول ما نظمَ من الشعر نظمه فيها فقال :

ربَّ دارٍ بأسفل الجزع من دو مةَ أشهى إليَّ من جيرون
وندامى لا يفرحون بما نا لوا ولا يرهبون صَرْف المنون
قد سُقيتُ الشمولَ في دار بشرٍ قهوةً مُزّةً بماءٍ سخين

ويفهم من قول (عديٍ) هذا ونزوله ضيفاً في دار بشر في دومة دمشق وبشرٌ عربي بدلالة اسمه - يفهم من هذا كله أن العرب كانوا يسكنون الشام ويبنون فيها الدور والقصور قبل الاسلام . وهناك أدلة تاريخية أصرح من هذا .

ثم عاد (عدي) من سياحته في سورية الى بلاط كسرى فبلغه خبر

موت أبيه (زيد) في الحيرة فأسرع اليها فتلقاه ملكها (المنذر) وجميع طبقات أهلها بالحفاوة والاكبار . ولو شاء لشكوه عليهم : لأنهم كانوا ناقمين من الملك المنذر . لكن (عدياً) كان يؤثر حياة اللهو واللعب والصيد على متاعب الملك .

* * *

(زواج عدي بابنة النعمان)

وكان السبب في هذا الزواج أن هنداً ابنة النعمان وكان يومئذ (وليّ عهد المنذر) دخلت الكنيسة مع جواريها في عيد الفصح فاتفق دخول عدي الكنيسة . فرأى هنداً وكانت مديدة القامة ، عبلة الجسم لا تجاوز عمرها احدى عشرة سنة . فأخذت بلُبّه وشُغل بالرنوّ اليها . وهي مشغولة بالرنوّ الى القناديل والصوَر والأيقونات . وكان بين وصائفها وصيفة اسمها (ماري) تحب عدياً . فلم تنبّه سيدتها الى نظراته . فلما انتبهت غضبت وأقبلت على وصائفها تَسُبُّهنّ وتلطمهن .

ومضى على ذلك عام وعديٌّ يفكّر في هند ويتمنى رؤيتها وماري تنتظر الفرصة للجمع بينهما . حتى كان يوم عيد الفصح فأرادت هند الذهاب الى الكنيسة الكبرى ، فقالت لها وصيفتها ماري دعينا منها ولنذهب الى كنيسة (ثومه) (وثومه بالثاء المثلثة ونلفظها تاءً فنقول توما وهو المار توما بالعربية أوثوماوس باليونانية) وسترين ما أجمل بناءها وقناديلها والصور التي فيها وكثرة راهباتها والنساء اللواتي يقصدنها من جميع الجهات . فاستأذنت هند أمها في زيارة كنيسة (ثومة) فأذنت لها . وكانت ماري أعلمت عدياً بالخبر . فجاء الكنيسة في جماعة من أصحابه وقد لبس يلمَقاً فارسياً مخوّصاً بالذهب وكان جميل الوجه طويل القامة حلو العينين حسن المبتسم نقي الثغر .

فلما رأته الوصيفة ماري قالت لسيدتها هند انظري هذا الفتى فانه والله أحسن من كل ما أنت مشغولة به من قناديل الذهب والايقونات المرصّعة

بالجواهر فقالت لها : ويحك ! ومن هذا ؟ قالت عديّ بن زيد قادم من عند كسرى الى جدّك الملك المنذر بهدية . قالت : أتريثنه يعرفني اذا دنوتُ منه فنظرتُ اليه . قالت : ومن أين يعرفكِ وهو لم يركِ قط فدنت منه فشعرَ بها فجعل يتلهى عنها بمازحة الفتيان الذين معه . وهو قد برعَ عليهم بجماله . وعذوبة كلامه . وأنيق زيّه وهندامه . فذهلت هند مذ رأته . وظهر أثرُ الوَلَه على وجهها . ولحظت ماري ذلك فقالت : مالك ؟ كلّميه ، فكلمته وتعارفا ثم تفارقا على وجه جميلٍ . وموعدٍ قريب . وصحّ فيها قولُ شوقي رحمه الله :

(نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامٌ فكلامٌ فموعدٌ فلقاءُ)

ثم خطبها من جدها الملك فأجيب . وأصبح صهراً للنعمان وليّ العهد .

* * *

(موت المنذر وتملك النعمان)

مات المنذر ملك العرب فاختلفوا في من يملكونه عليهم من أولاده وكانوا اثنيْ عشر كما ذكرنا .

عديّ بن زيد وآله (آل زيد) يميلون الى (النعمان) بالطبع لأنه أبو زوجة (عدي) . و (آل مرينا) يميلون الى أخيه (الأسود بن المنذر) لأن الأسود نشأ فيهم وتربى مع أولادهم . كما مر في فاتحة الكلام .

واختلاف العرب هذا جعل كسرى في حيرة من أمر اختيار أحدهما حتى قال يوماً وهو محنق : (لأبعثنّ الى الحيرة اثني عشر الفاً من الأساورة . ولآمرنّهم أن ينزلوا على العرب في دورهم ويملكوا عليهم أموالهم ونساءهم . ولأملكنّ عليهم رجلاً من الفرس) . وكأن كسرى بهذا البيان السياسي يهدّد العرب بتحويل الانتداب الى حكم مباشر .

وكان (عديّ) حينما صرّح كسرى بما صرح به واقفاً على رأسه

يسمع فالتفت كسرى اليه وقال : ويحك يا عدي أما بقي في أولاد المنذر من فيه خير فنمليّكه على العرب ؟ قال : بلى ! وفيهم كل خير . قال : ائتني بهم . أنظر اليهم .

فكتب اليهم فأمّوا المدائن . فخلا عدي بالنعمان وقال له : (لست مملّيكاً غيرك . فلا يُوحشنّك ما أفضّل به اخوتك عليك فاني أخدعهم بذلك) .

ثم جعل عدي يخلو بهم واحداً واحداً ويقول : (اذا دخلتم على كسرى فالبسوا أفخر ثيابكم . واذا أكلتم بين يديه فتأنّوا وصغّروا اللقم وأقلّوا الأكل . فان قال لكم : أتكفونني العرب ؟ قولوا نعم . فان قال لكم : وان شذّ أحد العرب عن طاعتي أتكفونني ؟ فقولوا : لا . فانه حينئذٍ يهابكم . ولا يطمع في تفرقكم . ويعلم أن للعرب منعةً وبأساً . ثم يخلو عديٌ بالنعمان فيقول له : (اذا دخلت على كسرى إلبس ثياب السفر وتقلّد سيفك . واذا أكلت معه عظّم اللقم . وأسرع في المضغ والبلع وزِد في الأكل . فان كسرى يعجبه ذلك من العرب خاصة . واذا سألك هل تكفيني العرب ؟ قل نعم : واذا سألك فمن لي باخوتك إن عصوني ؟ قل له : إن عجزتُ عنهم فأنا عن غيرهم أعجز) .

هذا ما كان من (عديّ) مع حميه (النعمان) . أما ما كان من (ابن مرينا) مع ربيبه (الأسود) فان الأسود أخبره بنصيحة عديّ له (من لباس الزينة وقلة الأكل والعجز عن كبح الثورات العربية) فقال له : خدعك والصليب ومار ثومه . وان أردت النجاة فاعمل بعكس ما قاله لك . قال : كلاّ . إن عدياً أعرفُ بطباع كسرى . وان خالفته استوحش مني . فقال ابن مرينا ستعلم وتندم .

ثم دخلوا على كسرى وفعلوا كما أمرهم (عديّ) . وكان النعمان من يومهم أحمرَ أبرشَ قصيراً . فدخل وعليه لباس السفر وهو متقلد سيفه ولما أكلوا جعل النعمان يكبر اللقم ويُسرعُ في المضغ والبلع وكسرى

يلحظه . فالتفت الى عدي وقال له بالفارسية : (إن يكن في أحد منهم خيراً ففي هذا) . ثم سألهم كسرى فأجابوه بما علّمهم عدي . فأعجبَ كسرى قولُ النعمان فملّكه وخلع عليه وألبسه تاجاً قيمته ستون الف درهم فيه اللؤلؤ وعليه الذهب . ثم انصرفوا . وجعل (ابن مرينا) يوبّخ ربيبه الأسود . وأحسّ عدي بالشر من قبل (ابن مرينا) . فأولم له وخلا به وصارحه بما في نفسه قائلاً : (لا تلمني على شيء كنتَ أنتَ تحاولُ أن تفعله لربيبك . تعالَ نتعاهد أن لا يحقدَ أحدنا على الآخر) . وجعل عديٌّ يحلف لابن مرينا . أما ابن مرينا فحلف له إنه لا بد أن ينتقم للأسود منه .

لا جرم أن يكون التوفيق قد خان عدياً في موقفه الذي استسلم فيه لخصمه كلّ هذا الاستسلام . وبذلك جرّ على نفسه ثم على النعمان بلاءً عظيماً .

* * *

(تدبير المظاهر لعدي)

ولما رجعوا كلهم الى الحيرة خلا ابن مرينا بالأسود فقال له : إن عجزت عن أخذ الملك فلا تعجز عن أخذ الثأر . قال : مرني فأطيع . قال : يجب أن لا يمضي يوم إلا ويكون على باب النعمان هدية من خيار مالي أو خيار مالك . وبذلك تملك قلب النعمان . فاستمرّا على هذا الأمر طويلاً حتى صار النعمان لا يقضي في ملكه بشيء الا بأمر (ابن مرينا) وكان اذا ذُكر (عدي) في مجلس النعمان أثنى عليه ابن مرينا . ثم يقول : (لكنّ فيه مكرٌ وخداع ، والعربي المُفتري لا يصلح إلا هكذا) .

فلما رأى الناسُ منزلة (ابن مرينا) عند النعمان التفوا حواليه وأحبوه فكان يقول لهم اذا مدحتُ عدياً عند النعمان قولوا : (هو كذلك إلا أنه خداع لا يسلم من شره أحد . وأنه يقول هو الذي ولاّك الملك وأنك

عامل من تحت يده) فكانوا يقولون هذا للنعمان . وما زالوا به حتى حقدَ على صهره (عديّ) .

ثم زوّر (ابن مرينا) كتاباً على لسان عدي الى بعض دهاقين الحيرة وفيه ما يسوء النعمان ، ودسّ الكتاب اليه ، فغضب النعمان وكتب الى عديّ يستزيره ، فاستأذن كسرى وأقام أخاه (أُبَيْناً) مقامه في رؤية أشغاله في البلاط . ووفد على حميه النعمان فلم يسمح النعمان بالدخول عليه وإنما أرسله توّاً الى (الصينيّين) (١) . وهو رستاق للمناذرة ينزلون فيه للهو والمسرّات . فسجنه ثمه . ولم يمكّن أحداً من الدخول عليه . حتى طلاق ابنته (هند) فطلّقها .

* * *

(عديّ في السجن)

وجعل عدي وهو في السجن ينظم القصائد البائية ويرسلها من صدره آهات حزينة : يصف بها حاله ، ويشكو النعمان ويستعطفه . ويذكره بما كان بينهما من خالص الود والمصاهرة وسابق التربية . ويأسف له كيف انخدع بدسائس الواشين . وتحامل الماكرين . من ذلك قصيدته البائية التي مطلعها :

(سعى الأعداءُ لا يألون شرّاً عليك وحقّ مكةَ والصليبِ)

وقد قال فيها :

(ألا من مبلغٌ النعمانَ عني وقد تُهوَى النصيحة بالمغيبِ)
(أحنظليّ كان سلسلةً وقيداً وغُلاًّ : والبيانُ لدى الطبيبِ)
(أتاك بأنني قد طالَ حبسي فلم أسأمْ بمسجونٍ حريبِ)
(وبيتي مقفر الا نساءً أراملَ قد علكن من النحيبِ)

---

(١) في المراصد هو بلد بظاهر الكوفة كان من منازل آل المنذر وبه نهر ومتنزه اه لكن الذي في القاموس ان (خانقين) بلد بسواد بغداد وانها سميت بذلك لأن النعمان الملك خنق به عدي بن زيد العبادي حتى قتله .

الى ان يقول :

(فهل لك أن تداركَ ما لدينا ولا تُغلَبَ على الرأي المُصيبِ)
(فاني قد وكلتُ اليومَ أمري الى ربٍّ قريبٍ مستجيبِ)

سيتم أيها السادة كيف أن عدياً في مطلع هذه القصيدة جمع في القَسَم بين الصليب وبين مكة أكبر معبد للعرب ، وهو نصراني والمخاطب بالشعر وهو النعمان نصراني ايضاً . وفي شعر (الاخطل) النصراني الاموي كثير من مثل هذا الحلف فهو يقسم (بالله ربِّ ستورِ البيتِ والحُجُبِ) و (البيتِ ذي الحُرُماتِ والأستار) . كما حلف بيثرب وزمزم وبالحُجاج وبالابل التي تحملهم الى مكة وبالأنعام التي يذبحونها أيام التشريق (*) .

(*) ويدل شعر الأخطل على ان العربي مهما تدين بغير دين العرب لا بد أن يغلب عليه دين العرب الذي به اعتزازهم . ومنه يستمدون جامعتهم . ويستوحون قوتهم . من ذلك قوله :

(إني حلفت برب الراقصات(١) وما أضحى بمكة من حجب وأستار)
(وبالهدي(٢) اذا احمرت مذارعها(٣) في يوم نسك وتشريق وتنحار)
(وما بزمزم من شمط محلقة وما بيثرب من عون وأبكار)

وقوله :

(وقد حلفت يميناً غير كاذبةٍ بالله رب ستور البيت ذي الحُجُب)
(وكل موفٍ بنذر كان يحمله مضرّج بدماء البدن مختضب)

وقوله :

(ولقد حلفت برب موسى جاهداً والبيت ذي الحرمات والأستار)

والنصرانية في شعر الأخطل أثر أيضاً لكنه قليل كما لاحظ الأب لامنس بل هو متأثر في أيمانه بالاسلام أكثر من تأثره بالنصرانية كما يظهر من الشواهد السابقة ويقول أحياناً (والصليب والقربان لأفعلن كذا) . وكان الأخطل مضطرباً في حياته بين عادات من حوله من النصارى وللمسلمين ، فهو يشرب الخمر ويعلق الصليب كما يطلق امرأته ويتزوج أخرى ويترهّى اهـ ملخصاً من ضحى الاسلام (جزء ١ ص ٢٤٧ و ص ٢٤٨) .

(١) الظباء التي من سرعتها كأنها ترقص .
(٢) الهديّ : النَعَم .
(٣) كذا بالذال وهي النخيل القريب من البيوت والنواحي والقرى بين الريف والبر واضواج الوادي أي منعطفاته . يريد اذا نحرت فاحمرت ارباض مكة وساحاتها بدمائها فيكون ضمير مذارعها راجعاً الى مكة .

لاجرم أن نصارى العرب قبل الاسلام وبعده إن كانوا يعتبرون بيت المقدس قبلتهم الدينية ، فقد كانوا يعتبرون مكة قبلتهم القومية . وان كانوا يستمسكون بالصليب كرمز للخلاص الديني ، فانهم يستمسكون بالكعبة كرمز للنجاح السياسي .

ولعديّ وهو في السجن قصيدة أخرى فيها ما يدل على عقيدته القومية العربية وهي التي مطلعها :

(ليس شيء على المنون بباقي غير وجه المسبِّح الخلاّق)

وفيها يقول لأبي مُسهر الذي بعثه برسالة الى إخوته في العراق :

(يا أبا مسهرٍ فأبلغ سريعاً إخوتي إن أتيت سحن العراق)
(أبلغن عامراً وأبلغ أخاه أنني موثق شديد وثاقي)
(في حديد القُسطاس(١) يرقبني الحا رس والمرء كلّ شيء يلاقي)
(في حديد مضاعف وغلول وثياب مُنَضَّحات خلاق)
(فاركبوا في الحرام فكّوا أخاكم إن عيراً قد جُهِّزت لانطلاق)

وقوله في الحرام يعني الشهر الحرام فهو يطلب من اخوته أن ينطلقوا في الشهر الحرام الى مكة ويحرضوا العرب على النعمان ويضطروه الى اخراج عدي من السجن . فعدي واخوته النصارى لم يستعينوا على عدوهم النعمان النصراني بسلطة الدين المسيحي الجامع بينهم ، وانما استعانوا عليه بقوة العصبية القومية التي تجمع بينهم وبين سائر عرب الجزيرة . وفي ذلك موعظة وعبرة .

ومن شعر عدي في السجن قوله :

(أبلغ النعمان عني مألُكا أنني قد طال حبسي وانتظاري)
(لو بغير الماء حلقي شَرِق كنتُ كالغصّان بالماء اعتصاري)

ومن أشهر سجنيّات عدي قصيدته التي يعظ فيها النعمان ويذكره بما فعل الدهر بالملوك الغابرين ومطلعها :

(١) هو الميزان والقبان رومي معرب . فيكون المراد من حديد القسطاس السلاسل الضخمة التي تناط بالقبان ثم تعلق بها الموزونات . هكذا يفهم من قول الليث كما في التاج .

(أيها الشامت المبتر بالدهـــر أأنت المبترّ الموفور) (١)

* * *

(قتل عديّ)

وفي آخر الأمر كتبَ (عديّ) الى أخيه (أبيّ) الموظّفِ في بلاط كسرى يستفزّه بهذه الأبيات :

(أبلغ أبيّـــاً على نأيه وهل ينفعُ المرءَ ما قد علِم)
(بأن أخاك شقيقَ الفؤا دِ كنتَ به واثقاً ما سَليم)
(لدى ملكٍ مُوثقٍ بالحديـــدِ إما بحقٍّ وأما ظُلم) الخ

فعرض أخوه أمره على كسرى فكتب الى النعمان باطلاقه مع رسول. وكان للنعمان في بلاط كسرى من يطلعه على الأخبار، فكتب اليه يخبر الرسول فأشار أعداء (عديّ) على النعمان بقتله في السجن قبل وصول الرسول خشيةَ أن يعودَ الى كسرى فينتقمَ منه، فأبى النعمان قتله. ثم وصل الرسول فدخل السجن على عديّ قبل أن يدخل على النعمان. وكان أبيّ أخو عدي أوصاه بذلك. فقال (عدي) للرسول أعطني كتاب كسرى حتى أكون أنا الذي أرسله الى النعمان وإلا فان النعمان قاتلي بعد خروجك وقبل وصولك اليه. فلم يرض الرسول. ولما بلغ النعمانَ أن الرسول دخل على عديّ قبل دخوله عليه أرسل الى السجن من غمّ عدياً فمات

(١) وتتمتها :

(أم لديك العهد الوثيق من الأيـــام بل انت جاهل مغرور)
(أين كسرى كسرى الملوك انوشر وان ام أين قبله سابور)
(وبنو الأصفر الكرام ملوك الرّ وم لم يبق منهم مذكور)

ثم ذكّر النعمان بمجده النعمان الأكبر وما كان من أمر زهده وسياحته فقال :

(وتذكر رب الخورنق إذ أشـــرف يوماً وللهدى تفكير)
(سرّه ملكه وكثرة ما يملـــك والبحر معرضاً والصدير)
(فارعوى قلبه فقال وما غبطـــة حيّ الى الممات يصير) الخ

خنقاً. ثم دخل الرسول على النعمان وسلمه كتاب كسرى، فلما قرأه قال سمعاً وطاعةً للملك : اذهب الى عديّ فأخرجه من السجن بنفسك. وأمر للرسول بخلعٍ ومالٍ وجاريةٍ حسناء. وجاء الرسول ليفكّ (عدياً) فقال له السجّان انه مات بعد خروجك. فعاد الى النعمان وكله بغضب شاعراً أن في الأمر مكيدة. فهدّده النعمان قائلاً : بعثك كسرى اليّ فدخلتَ على عديّ قبلي. وأخذتَ منه رشوة. فخاف الرسول. ثم زاده النعمان من الخلع والمال. وتوثّق منه أن لا يخبر كسرى إلا بأن عدياً مات. ولما أخبر الرسول كسرى أسيفَ على عديّ ولم يخفَ عليه الأمر.

أما النعمان فندم على قتل (عديّ) ولا سيما مذ رأى رجاله وحاشيته قد أصبحوا يجترئون عليه ولا يهابونه. وكيف يهابونه وهم يعلمون غدره بعديّ. وفي كل ساعةٍ هم قادرون على الوشاية به الى كسرى.

ومضت على ذلك أيام حتى اتفق للنعمان أن كان في الصيد فرأى غلاماً جميلاً. فكلّمه فاذا هو ظريف اللسان. فسأله من أنت ؟ قال : أنا زيد ابن عدي (لعله من غير ابنته هند وإلا فيبعد أن لا يكون عارفاً به) فرقّ له وتذكّر والده. وأراد أن يكفّر عن ذنبه ويتّقي المكايد التي قد تكون دُبّرت له. فقرّب الولد اليه. واعتذر اليه عما فعله بأبيه. (وهذا من النعمان فيُولة في الرأي. وفُسُولة في الهمة. وليس ما فعله من حزم الملوك في شيء). ثم جهّز الولدَ الى كسرى مع كتاب يقول فيه: (إني قد فُجعت بعَدِيّ أكثرَ من كل أحد. أما الملكُ فلا يفقدُ من رجاله رجلاً حتى يخلُفَ الله عليه بخير منه. وها قد بلغَ ابنُ لعدي مبلغ الرجال. وليس هو بدون أبيه علماً وكفاية. وقد أرسلته الى البلاط ليكون في خدمة الملك وفي رؤية مصالح العرب كما كان أبوه). فقبله كسرى وقرّبه اليه. وكان يسأله أحياناً عن النعمان فيُثني عليه. ومكثَ على ذلك سنوات حتى حانت الفرصة لاخذ ثأر أبيه (عديّ) من قاتله النعمان. فهتفَ في نفسه : ها قد سنحت الفرصة : فهيّا الى الانتقام !!

* * *

(الانتقام من النعمان)

أما الفرصة السانحة للانتقام فهي أن المنذر الأكبر جدّ النعمان كان أصاب في بعض غاراته على غساسنة الشام جاريةً حسناء . فأرسلها هديةً الى كسرى أنوشروان وكتب اليه كتاباً ضمنه وصف تلك الجارية فقال : (أرسلتُ الى الملك جاريةً معتدلة الخلق . نقيّة اللون . بيضاء . كحلاء . أسيلةَ الخد . رقيقة الأنف . شهية المُقبَّل . عريضةَ الصدر . كاعبَ الثدي . حسنة المعصم ، لطيفةَ الكفّ . سَبْطة البنان . ضامرةَ الكشح . خميصةَ الحصر . رابية الكفل) . وبقي يسترسل في الوصف حتى وصل الى قدميها فقال : (مُفْعَمة الساق . مُشْبَعَةَ الخَلْخال . لطيفةَ الكعبِ والقَدَم) . وبعد أن أتمّ وصف بدنها انتقل الى وصف أدبها فقال : (عزيزةَ النفس . حييّةً . رزينة . حليمةً . كريمة . قد أحكمتها التجارب . فرأيها رأيُ أهل الشرف . وعملُها عملُ أهل الحاجة . صناعُ الكفين . قطيعةُ اللسان[1] . ساكنة الصوت . إن أردتها اشتهت . وان تركتَها انتهت . تبادرك الوثبة إذا قُمت . ولا تجلسُ الا بأمرك اذا جلست) . فقبل كسرى الجارية وأمر أن يُحفظ كتابُ وصفها في خزانة ديوانه . ثم صار من آيين[2] الأكاسرة أنهم اذا أرادوا اجتلاب جواري من الأقاليم جلبوهن على هذه الصفة أو هذه المسطرة . لكنهم ما كانوا يطلبون جواريَ من جزيرة العرب ظناً منهم أنه لا يوجد في نسائهم جميلات . إلى أن كان زمنُ (كسرى هرمز) الذي حدثت وقائع محاضرتنا في عهده فطلب من الأقاليم جواريَ له ولأولاده .

فدخل عليه (زيد بن عدي) وهو يختم الكتاب ، وقد وضع في طيّه

(١) أي ليست ثرثارة .
(٢) أي بروتوكول بلاطهم .

(مسطرة الجمال) مستخرجةً نسختُها من خزانة جدّه (أنوشروان) . فقال له زيد : إني عارف بآل المنذر ملوكِ الحيرة وجمالِ نسائهم وأن لديهم أكثرَ من عشرين ابنةً على هذه الصفة . فان رأيت أن تكتب الى عبدك النعمان فيرسلَ اليك بما تحبُّ منهن . فقال له كسرى : اكتب اليه أنت بذلك . قال : لكنه قد يغيّبهن : إذ أن شرّ شيء في العرب وفي النعمان خاصةً أنهم يتكرّمون في أنفسهم عن العجم . فأرسليني الى النعمان وأرسلْ معي ثقةً من رجالك يفهمُ العربية حتى نبلّغه الرسالة . ونحملَ الجواري الى بلاطك .

فبعث كسرى معه رجلاً فارسياً قوياً ذكياً . فجعل زيدٌ يعتني بالفارسي ويُكرمُه . ويتحببُ اليه . حتى دخلا على النعمان . فأخبره زيدٌ بأن كسرى يريد أن يكرمَه بالاصهار اليه . وأنه يطلب من كانت على هذه الصفة من بناته . ثم دفع اليه كتاب كسرى . وفي طيه المسطرة .

فلما قرأها النعمان امتقع لونه . وشقّ عليه هذا الطلب . فقال لزيد — ورسول كسرى يسمع — : (أما في مها السواد وعين فارس ما يبلّغُ به كسرى حاجته) ؟ فسأل الفارسي زيداً : (ما المها ؟؟) . وهنا الأمانة في النقل والترجمة من لغة الى لغة . فقال زيد (المها) بالعربية معناها (كاوان) فسكت الرسول على غيظ .

فسّر زيد (المها) بكاوان وهي بالفارسية تدل على هذا البقر الأهلي الذي يحرث عليه . فغضب الفارسي ، وقد تعمّد زيد إغضابه . ولولا ذلك لفسّر له (المها) بالظباء والغزلان . والذي ساعد زيداً على تفسير المها بالبقر ويبقى صادقاً أن شعراء العرب في الجاهلية كما كانوا يشبّهون النساء بالظباء والغزلان . كانوا يشبهونهن أيضاً بالبقر الوحشيّ والنّعاج والشاء . وكلمة (مها) تشمل الغزلان والبقر الوحشي . وكلاهما مستعملٌ في لغة الشعر الغزلي العربي . ولا كذلك كلمة (كاوان) الفارسية

بالنسبة للغة الشعر الغزلي الفارسي . وإنما هي بمعنى البقر الأهلي . وهو المعنى الذي أغضب رسولَ كسرى مذ جعله يفهم أن النعمان يتهكم بابناء الملك وأنهم إنما تصلح زوجاتٍ لهم بقرات بلاد فارس . لا بنات ملوك العرب . فانظروا أيها السادة دهاء (زيد بن عدي) ومقدرته في اللغتين الفارسية والعربية . وحسنَ تصرفه في الكيد لخصمه النعمان . والترجمةُ من لغةٍ الى لغة اذا أسيئت أضرّت بل ربما أفسدت ودمّرت .

ولما تمّ الدست على النعمان وأجاب بما أجاب . التفت (زيد) اليه وقال : ان الملك أراد كرامتك بمصاهرتك . ولو علم أن هذا يشق عليك لما خاطبك . فقال : اعتذر لي عنده ، ثم سلم الى الرسول كتاباً الى كسرى . فلما وصلا الى المدائن وهمّا بالدخول على كسرى ، قال زيد للرسول : لا تنس أن تقول للملك ما سمعتَ من النعمان . قال لا أنسى . ثم دخلا عليه وسلّماه الكتاب وفيه يقول النعمان : (إنه ليس لديهم بنات على الصفة المذكورة) . فالتفت كسرى الى زيد وقال له : أما قلتَ لي إن لديه بناتٍ كذلك . قال زيد نعم ، ولكني قلتُ للملك أيضاً : إن العرب يضنّون بنسائهم على الأعاجم وإن هذا من شقائهم . واختيارهم الجوعَ والعُرْيَ على الشبع والرياش . ثم التفت الى الرسول وقال له : قلْ للملك ما سمعت ، فقال كسرى بتزَق وما هو ؟ قال الرسول : (إن النعمان يقول لك : أما في بقر بلاد العراق ما يُغنيه عن نسائنا ؟) فاحمرّ وجه الملك غضباً مذ سمع كلمة (البقر) . وقال : (ربّ عبدٍ أراد ما هو أشرّ من هذا ثم صار أمره الى الهلاك) . وأخذ كسرى من يومئذٍ يفكر في الايقاع بالنعمان . والنعمان يحذر ويتهيأ . الى أن جاءه كتاب كسرى يطلبه اليه ، فأحسّ بالشر . فحمّلَ أهله وسلاحه وما خفّ من ذخائره وهرب الى البادية التي هي حصن العرب عند نزول الشدائد . وجعل يطلب من القبائل أن يحموه . وفي جملة هذه القبائل أصهارُه بنو طيّ وبنو عبس . فلم يلبّوه خوفاً من كسرى وجنوده . الى أن بلغ منازلَ بني شيبان النازلين على مائهم الشهير بذي قار .

وكان سيدُ شيبان يومئذ هانئُ بن مسعود فطلب جواره . فقال له هانئ : (إني أجيرُك بما أجير به نفسي وأولادي . لكن ذلك غيرُ نافعك ولا نافعي . لأن كسرى يُهلكك ويُهلكني . وعندي رأيٌ غير هذا) . قال : هاته . قال : (أن تأتي كسرى وتضرّعَ اليه : فان صفحَ عنكَ عُدت ملكاً . وان قتلك مُتّ كريماً . وكان ذلك خيراً لك من أن تعيش في بلاد العرب ذليلاً . وكلُّ شيءٍ يحمّلُ بالرجل إلا أن يُصبح سُوقة بعد أن كان ملكاً) . فقال له النعمان : وحُرَمي وسلاحي ؟ قال : (هنّ في جواري : لا يخلُصُ إليهم أحد حتى يخلُصَ الى بناتي) . قال : (هذا وأبيك الرأي) . ثم اختار هديةً نفيسةً وأرسلها الى كسرى مع كتابٍ يعرضُ فيه ندامته واستئمانه . فكتب اليه كسرى بالحضور . فقدم المدائنَ عاصمة كسرى آمناً مطمئناً . فاستقبله (زيدُ بن عدي) على قنطرة ساباط على باب المدائن . وقال له :

— أنجُ نُعَيمُ إن استطعت نجاءً .

— أفعلتها يا زيد ؟ أما والله لئن عشت لأقتلنّك قتلة لم يقتلها عربي قط . ولألحقنّك بأبيك .

— امض لشأنك نُعَيم : فقد والله أخيتُ لك أخيّة[1] لا يقطعها المهرُ الأرِن .

ولما وصل النعمان الى بلاط كسرى لم يُؤذن له بالدخول . وأمر كسرى أن يقيد ويُحمل الى (خانقين)[2] ويبقى مسجوناً فيها . فحُمل اليها وبقي ثمّة حتى مات بالطاعون . وقيل ألقاه كسرى تحت أرجل الفيلة حتى مات . والأول أصحّ .

* * *

(١) الأخية : عروة من حبال تثبت في الأرض وتربط بها الأمراس ويسميها أهل نجد اليوم غيّة بقلب الخاء غيناً . وأخّى الأخيّة شدّها وأحكمها .

(٢) بلدة على طريق بغداد الى طهران .

(وقعة ذي قار)

(وغضب العرب كافة لما تزل بإخوانهم نصارى العراق)

ولما شاع في العرب خبر موت النعمان في خانقين . وكان ظهر الاسلام وهاجر النبي (ﷺ) الى المدينة — غضبوا وأضمروا الشر لكسرى . وبلغ كسرى خبر دروع النعمان وذخائره . فأرسل الى هانئ بن مسعود يطلبها منه فلم يرسلها اليه ، بل وجدها هانئ فرصة للثورة والانتقام . فأرسل كسرى الى ذي قار بالجيوش . وكان هانئ استعد له وفرّق دروع النعمان على العرب يجهزهم بها وهي تبلغ سبعة آلاف درع . واتفق العرب جميعهم : مشركوهم ونصارام على الدفاع . فصدموا العجم صدمة شديدة . وكان العطش اشتد بجنود كسرى فضعفوا وانهزموا . وركبتهم العرب وقتلوا منهم .

وكان ذلك في نفس الوقت الذي انتصر فيه النبي (ﷺ) على مشركي مكة في (وقعة بدر) وهي السنة الثانية للهجرة . فكانت الوقعتان (في بدر وذي قار) من نوع واحد ، انتصر الحق فيهما على الباطل . ومهّدتا السبيل لظهور امر العرب وانتشار دعوتهم في الأرض . ويومُ (ذي قار) هو اليوم الذي قيل فيه : (إنه أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم) .

وروى بعضهم أن السبب في حرب (ذي قار) ان كسرى طلب من هانئ بن مسعود هنداً ابنة النعمان لا دُروعه . وهندٌ هي زوجة (عديّ) التي كان رآها في كنيسة (مارثوماوس) ثم تزوّجها . كما شرحنا ذلك في فاتحة المحاضرة . فأبت هندٌ أن تذهب الى كسرى . واستجارت بهانئ وبقومه بكر بن وائل فمنعوها وحاربوا دونها وكسروا كسرى في (ذي قار) من أجلها (١) .

* * *

(١) وفي مكتبة (لندن) اليوم كتاب مخطوط اسمه : (حرب بني شيبان مع كسرى أنوشروان في شأن الحرقة بنت النعمان) والحرقة لقب هند نفسها .

طالت المحاضرة أيها السادة ويحق لكم أن تملّوا فأسكت . لولا تمّان مهمتان أرجو أن تتكرموا بالاصغاء اليهما وهما (شعر عدي) و (ترتيب هند) .

* * *

(شعر عدي)

يعدّ (عديّ) من فحول شعراء الجاهلية ، وقد ذكره علماء الأدب والمصنّفون فيه وأثنوا عليه . وقالوا : ان غرر قصائده أربع منها القصيدة التي مطلعها : (أيها الشامتُ المعيّرُ بالدهر) وقد مرّت . لكن بعض النقاد من علماء اللغة وحماة العربية لا يرى شعر عديّ مما يصحّ الاستشهاد به في إثبات كلمات اللغة وعُربية ألفاظها . والسبب في ذلك أن عدياً قضى معظم حياته في (المدائن) عاصمة كسرى وبين سكانها الأعاجم . فلا غروَ إذا لان شعره . وانحطّ عن جزالة شعر فحول الجاهلية . ولا سيما أنه تسرّب اليه ألفاظ كثيرة من اللغة الفارسية . من ذلك قوله يصف أرَقَه في ليلة تكاثف غيْمُها ، وتتابع بَرْقُها :

(أرِقتُ لمكفهرّ (١) بات فيه ... بوارقُ (٢) يعتلين رؤوسَ شيبِ (٣))
(تخالُ المشرفية (٤) في ذُراه (٥) ... ويجلو صفحَ دَخْدارٍ قشيبِ)

و (الدَخدار) كلمة فارسية مركبة ومعناها الثوب المصوّن في الحت أي الصندوق . فأصل (دخدار) تخته‌دار فهو قد شبه طيات السحاب بالملوّن من طيات الثياب .

ومن شواهد اللين في شعر عديّ قوله :

(١) سحاب اسود .
(٢) بروق .
(٣) أي سحب مبيضة من نور القمر .
(٤) السيوف .
(٥) أعاليه .

(وأطف حديث السوء بالصمت إنه متى توري ناراً للعتاب تأجّجا)

وضمير تأجّجا يرجع الى العتاب . أي ان العتاب يعود فينقلب ناراً ملتهبةً . فالسكوت أولى وأنجح . وهذه الحكمة من قول عدي انما تصدر عن رجل عريق في الحضارة وآدابها وتربيتها . ومعنى قوله هذا قولهم : (أسكتُ فسكيت) .

* * *

(زهب هند)

كان من أمر هند بنت النعمان بعد أن قُتل زوجها ثم أبوها أنها بنَتْ لنفسها ديراً في ضواحي مدينة (الحيرة) وترهّبتْ فيه ، وانقطعت عن مخالطة الناس . وعاشت بعد الاسلام زمناً طويلاً .

ولما ولّي معاويةُ المغيرةَ بن شعبة الكوفة سنة عشرين للهجرة مرّ شعة بدير هند واستأذن عليها . وكانت بلغتْ التسعين من العمر . فأذنت له وبسطتْ له مسحاً فجلسَ عليه . ثم قالت له :

— ما جاء بك .

— جئتُك خاطباً .

— لوْ علمتُ أن فيّ خصلةً من الخصالِ التي تُرغّب الرجالَ فيّ لأجبتُك . ولكنك أردتَ أن تقول في المواسم : ملكتُ ملكةَ النعمان وتزوّجتُ ابنته . فبحقّ الرب أهذا أردتَ ؟

— إي والله ؟

— لا سبيلَ الى ذلك ؟

— ثم ودّعها وانصرف وهو ينشد :

(أدركتِ ما تمنّيتْ نفسي خالياً لله درُّك يا ابنـــةَ النُعمان)
(فلقد رددْتِ على المغيرةِ ذهنه إن الملوكَ نقيّةُ الاذهان)

ولما فتحَ خالدُ بن الوليد مدينة الحيرة سنة اثني عشر للهجرة زارَ هنداً ثم قال لها :

— سليني حاجتك .

— هؤلاء النصارى الذين في أيديكم تحفظونهم .

— هذا فرضٌ علينا : أمرَنا به ديننا لا حاجة للوصية به . ولكن اطلبي ما شئتِ من مالٍ وكسوةٍ .

— لا حاجة لي بذلك : فان لديّ عبيداً يحرثون أرضاً لي . وهي تُغلُّ من القوت ما يكفيني ويكفيهم . ثم أنشدتْ :

(بيانفسوسُ الناسَ والأمرُ أمرُنا إذا نحن فيهم سوقةٌ تتنصّف)
(فتبّاً لدنيا لا يدوم نعيمها تقلّبُ تاراتٍ بنا وتصرّف)

ولما خرج خالدُ من عندها ، إذا أهلُ ميلتها يبادرون اليها من كل جانب . وجعلوا يسألونها عما أراده بطلُ الاسلام من زيارته لها ، فقالت :

(صان لي ذمّتي وأكرم وجهي إنما يكرمُ الكريمَ الكريمُ)